

فرانز فانون في مواجهة الفكر الاستعماري الغربي

Title in English; Frantz Fanon in the face of western colonial thought



سليم سايح *

جامعة قسنطينة 2 - عبد الحميد مهري

salim.sayah@univ-constantine2.dz

تاريخ الاستلام: 2025/02/15 تاريخ القبول 2025/05/19 تاريخ النشر 2025/06/03



ملخص: تحاول هذه الورقة البحثية، تلمس الوجه الإشكالي في فكر فرانز فانون، بعد الجدل الكبير الذي أثارته مؤلفاته في أوساط النخبة المثقفة الأوروبية عامة والنقاد بخاصة الذين رأوا في كتابات فانون، تبريرا للعنف والدعوة إليه وهو ما يمثل برأيهم، تجاوزا لضوابط الغرب المبنية على الاحتكام إلى العقل دون سواه، وأن فانون يكون بذلك قد "خلخل" أنماط المعرفة الغربية، وبنى الفكر الوجودي، حينما صرف فعل الكتابة إلى قضايا جزئية لم تكن في أساسها جوهر الفكر الوجودي الذي (اهتم بالقضايا الكلية الوجودية دون إسقاطها على راهن الإنسان غير الغربي المضطهد أساسا) كان يهيمن على الحياة الفكرية في فرنسا وأوروبا عامة، إلى الاهتمام بقضايا إنهاء الاستعمار، والاضطهاد والحرية في مستعمرات الغرب خارج أوروبا، وأن فانون برأيهم، يمثل حالة من "تفسخ" المثقف العضوي الذي تجاوز فعل الكتابة إلى ممارسة العمل الثوري. لكن يجب القول من جهة أخرى، أن هذه النخب الغربية المثقفة، لم تستطع مجاراة المقاربة الديالكتيكية لفانون في تأكيده لترباط كليات الفكر الوجودي بقضايا الوجود في حد ذاته، وهو ما شجع فانون على وضعها في موضع الاتهام، خاصة وأن هذه النخب، لم تبد المواقف ذاتها حيال رسائل الدعم التي تلقاها فانون من وجوه الفكر الوجودي من أمثال جون بول سارتر

* المؤلف المراسل

وكامو، وهو ما يعيد طرح سؤال البنى الفكرية لدى نخب الغرب في حد ذاتها، والأسس التي إنبنت عليها.

الكلمات المفتاحية: فانون؛ النخبة؛ الغرب؛ الاستعمار؛ العنف؛ الاضطهاد؛ الحرية.

Abstract: This research paper attempts to touch on the problematic aspect of Frantz Fanon's thought, after the great controversy that his writings aroused among the European intellectual elite in general and critics in particular, who saw in Fanon's writings a justification for violence and a call for it, which in their opinion represents a transgression of the western controls based on resorting to reason alone, and that Fanon thus disrupted western patterns of knowledge and the structures of existential thought, when he diverted the act of writing to partial issues that were not essence of existential thought, which was concerned with the general existential issues without projecting them onto the present of the non- western human being who was essentially oppressed and dominated intellectual life in France and Europe in general; to concern himself with the issues of decolonization, oppression and freedom in the western colonies outside Europe, and that Fanon, in their opinion, respects a state of disintegration of the organic intellectual who transcended the act of writing to practice revolutionary work. But it must be said on the other hand that these educated western elites were unable to keep up with the dialectical approach of Fanon in his emphasis on the connection between the universals of existential thought and the issues of existence itself which encouraged Fanon to place them in a position of especially since these elite did not express the same positions towards the message of support that Fanon received from the figures of existentialist thought such Paul – Sartre and Camus which raises again the question of the intellectual structures of the elites of west themselves and the foundations on which they were built.

key words: Fanon; elite; western; colonization; violence; persecution; freedom.

مقدمة:

يعد فرانز فانون، من المثقفين القلائل الذين انخرطوا بشكل عملي ومباشر في الكفاح الثوري المسلح، متجاوزا في ذلك، الصورة النمطية "للمثقف" الذي لطالما ركن إلى حالة الرجل المسالم الذي ينبذ العنف. يعالج فانون في كتاباته، الوجه الإشكالي بين "المثقف"

و"الثورة" وما تقتضيه هذه الأخيرة، من عنف يصبح بمنظوره إيجابيا لتحرير الفرد والأرض، هذا الهوس الذي تملك فانون بالدور الذي ينبغي أن يلعبه المثقف، يسافر به (فانون) عبر تجارب عايشها وكان شاهدا على قساوتها في موطنه الأصلي المارتينيك كما في فرنسا وفي الجزائر المستعمرة. ففانون في تبريره للعنف، يقفز على كل المفاهيم الدلالية " للمثقف " ليتوقف لزاما، عند ما كان يراه واجبا أخلاقيا بل ووظيفيا ينبغي على المثقف أينما كان، الالتزام به والدفاع عنه، من منطلق أن المثقف لا يجب أن يكون ولاؤه إلا لسلطان العقل أينما حل، فالمثقف عليه أن يتجاوز الزمان والمكان (الأوطان القطرية)، حينما يتعلق الأمر بتحرير الإنسان.

غير أن ما كان يراه فانون على أنه واجب أخلاقي وفكري تجاه الإنسان المضطهد تنتفي معه حدود الأطر الوظيفية للمثقف إلى الدرجة التي يصبح هذا المثقف ملزما بالانخراط بكل الأدوات في الكفاح التحرري ما ظل هذا الاضطهاد قائما، رأت فيه نخب الغرب المثقفة، على أنه تجاوز لضوابط المثقف في بلاد الغرب، وانحرافا عن أطر فعل الكتابة، وخروجاً عن القواعد الضابطة للفعل الثقافي الغربي.

بعد هذا، ألا يحق لنا التساؤل: ألا يكون انبعاث "فانون الثائر"، هو نتاج شعور انفصامي أنتجه انتماءه في لحظة ما إلى كم كبير من التناقض في الجغرافيا وفي الحضارة؟ فهو الانتيلي الأصل، وهو الفرنسي بالجنسية، وهو الجزائري بالوظيفة، قبل أن ينقلب إلى جزائري ثائر فكرا وانتماء؟ أم أن حالة فانون هذه، حالة ميلاد جديدة وانبعاث "لفانون المضطهد" الذي وجد في ثورة الجزائر، الفرصة للعودة إلى صفاء فانون الإنسان، واستشعاراً بحالة سيكولوجية كان يأمل منها مصلحة مع الذات؟ أعتقد أن تتبع منهج فانون نفسه في محاججته لنخب الغرب بالحقائق التاريخية، وبالأثار النفسية والاجتماعية (لكونه طبيباً نفسانيا يعالج مرضى الأهالي) المدمرة التي يخلقها اضطهاد الغرب للشعوب المغلوبة على أمرها، كفيل بتوضيح هذه الإشكالية، والإجابة على كثير

من اللغط الذي أثارته نخب الغرب حول ما كانت تعتبره انحرافا من فانون المثقف، وعدم "التزامه" بقيم الفكر الغربي التي تصر - برغم زيفها - على أنها قيم العقل والتنوير.

1-فرانس فانون : تنشئة طبيعية في بيئة غير طبيعية

ولد فرانز فانون في الـ 20 جويلية 1925 بعاصمة المارتينيك¹، فور دو فرانس (Fort de France)، ينحدر من عائلة زنجية تنتمي إلى طبقة البرجوازيين الأنتيلية (الصغيرة) التي تدعي أنها لا تنتمي للزنج. عمل أبوه موظفا بالجمارك، وأمّه بالتجارة، واستفاد خمسة من إخوة فانون الثمانية، من التعليم.²

خلال الحرب العالمية الثانية، اعتقد فانون أنه أصبح بالفعل، يمثل جزءا من المكون الحضاري الغربي، فمال إلى صف الدوغوليين في نهاية 1943 في أعقاب الانقسام الذي عاشه الفرنسيون خلال الحرب العالمية الثانية بين الجنرال دوغول (De Gaulle) والماريшал بيتان (Pétain)، استجابة كما يقول فانون، لواجب الدفاع عن الحرية، إذ يروي صديقه محمد الميلي، أن فانون بلغ به الأمر، إلى حد سرقة وبيع قطعة قماش فاخرة من ملابس أبيه، ودفعها ثمنا لتذكّرة الالتحاق بالدوغوليين في "الدومينيكا"، دفاعا عن الحرية واستجابة لنداء الواجب والضمير بوصفه فرنسيا.³

لكن فانون المنتشي بالدفاع عن قيم الحرية، ستصدمه سريعا، مظاهر الاحتفالات التي جرت قبل أسبوع من إعلان نصر الحلفاء في ميناء طولون (Toulon)، وسيقف على زيف شعارات الغرب وهو يشاهد النساء والفتيات، وهن يهتفن للجنود الأمريكيين ويراقصنهم، وكن يرفضن أن يراقصن الملون .. كانت موقفا جارحا لفانون فكان كتابه "بشرة سوداء أقنعة بيضاء" (Peau Noir Masques Blancs)⁴ الذي كتبه في سنة 1952، صرخة فانون وإدانتها لقيم الغرب الكاذبة.⁵ غير أن فانون، لم يبد إلى هذا التاريخ، أية مقاومة مادية.

لست هنا بصدد الحديث عن التحولات التي كانت تتسارع في المارتينيك، ولكني سأنبه فقط، إلى الزيف الذي بدأ يتكشف للأنثيليين بعد الحرب العالمية الثانية، بعد أن كانوا قد انساقوا وراء أوهام أفكار الاندماج التي حملتها الجمهورية الفرنسية الثالثة، فباتوا يرون عبثاً، أنهم ليسوا زنجياً ما داموا ليسوا عبيداً، وأن الزنوجية تعني الاسترقاق لا اللون - وهم أولى موجات الرقيق التي استقدمها البيض من أفريقيا إلى جزر الأنتيل بعد أن أيبّد سكانها الأصليين الذين رفضوا العمل في مزارع السكر التي يملكها البيض - وأن الزنوج، هم موجات الرقيق الأفارقة الذين استقدمهم البيض للعمل في مزارعهم. لكن هذا الأنتيلي كما يقول فانون، غيّر " بعد سنة 1945، القيم التي كان يتمسك بها، فبينما كانت نظرتة قبل 1939، تتركز على أوروبا البيضاء، وبينما كان الخير في نظره هو الهروب خارج لونه، اكتشف في 1945، أنه أسود بل وأصبح يتطلع نحو أفريقيا البعيدة. كان الأنتيلي قبل 1945 يعمل دائماً على التذكير بأنه ليس زنجياً، وابتداءً من 1945، أصبح الأنتيلي بفرنسا يعمل دائماً على التذكير بأنه زنجي.⁶

كان فانون وهو يتحدث إلى أصدقائه في أسرة تحرير جريدة المجاهد (لسان حال جبهة التحرير الوطني) التي التحق بها في تونس، عن التحولات الفكرية والسياسية في موطنه الأصلي المارتينيك، كمن يحاول أن يتجاوز حالة الإحساس بالذنب التي بات تسكنه لأنه "خذل" (وهو المثقف) بني جلدته حينما كانوا يقاومون الاستلاب الاستعماري الغربي، ويحاول فانون تبرير "غيبابه"، بالصيرورة وبالخطمية التاريخية، عندما يصفها بأنها ظاهرة ملازمة لكل المستعمرات بفعل لجوء المستعمر، إلى إنتاج فئة نخبوية يوهها هذا المستعمر وتستغفلها المصالح لتتقمص مظاهر البرجوازية، وسوف تجر في الحالة المارتينيكية هذه البرجوازية الواهمة معها، النخبة المارتينيكية، للتنكر لماضي المارتينيك الزنجي، وإلى عرقلة الكفاح الشعبي الذي كان ينشده الأنتيليون الأفارقة المضطهدين، حتى أن فئة الموظفين المارتينيكيين (التي ينتمي إليها فانون)، كانت تتحدث عن الزنوج الأفارقة، بنفس لهجة

الأوروبيين.⁷ كان فانون، يريد من كل هذا، أن يجد تبريراً لصمته الطويل تجاه ما كان يتعرض له بنو جلدته.

بعد نهاية الحرب، عاد فانون إلى فرنسا ليلتحق بكلية الطب بليون (Lyon)، لكن حبه وشغفه بالعلم، دفعاه إلى دراسة الفلسفة وعلم النفس.⁸ في ليون، درس فانون الطب على يد أستاذه الإسباني فرانسوا توسكال (François Tosquelle) المعارض لحكم الديكتاتور فرانكو، وتأثر فانون بطريقة توسكال "المداداة الاجتماعية" التي تعتمد على إعادة تأهيل الفرد من خلال الإدماج الاجتماعي (السوسيويثري) في البيئة الاجتماعية كمحفز لإعادة تأهيل المريض مرة أخرى، بدلا من طريقة "البيكاتري" القديمة⁹ التي تعتمد فقط ، على المعالجة النفسية للمرضى دون التطلع إلى محاولة إعادتهم للحياة الاجتماعية ثانية.

تأثر فانون بالفكر الوجودي، فقرأ لسارتر (Sartre)، وبوفوار (Beauvoir)، ولاكان (Lacan)، وكان يحرص على حضور دروس كل من: مارلو بونتي (Marleau Ponty)، ولوروي غور (Leroy Gour Han). شارك فانون بعد الحرب العالمية الثانية، في المظاهرات المناهضة للاستعمار. أسس جريدة الطالب "طام طام" (Tam Tam) (طلبل صغير يستعمل في أفريقيا)، وكان ينشر مقالاته، في جريدة "العقل" (l'Esprit)، وجريدة "الأزمة المعاصرة" (Les Temps Modernes)¹⁰، وفي 23 نوفمبر 1953 (إلى 27 جانفي 1957) عمل فانون كطبيب نفسي في مستشفى جوانفيل (Joinville) (بليلة حاليا)، وخلال هذه الفترة، كانت له علاقات رفيقة زميله الدكتور كونيلون (Counillon) الذي التحق بصفوف بالثوار الجزائريين في 1956 مع قادة الثورة الجزائرية، وصلت إلى حد تقديم الدعم اللوجستي. وفي بداية فيفري 1957، اعتقلته الشرطة الفرنسية بشبهة ممارسة نشاطات يسارية سرية، وحول

إلى فرنسا، ليظهر في 03 مار 1957 في ندوة صحفية بمقر الاتحاد التونسي للشغل بتونس العاصمة، اتهم فيها السلطات الاستعمارية الفرنسية، بالوقوف وراء مجزرة ملوزة.¹¹

2- فانون والآخر المثقف:

يقول المفكر الإيطالي غيتانو موسكا (Gaetano Mosca) عن النخبة المثقفة في كتابه (نظرية الحوكمة والحكم البرلماني) (Teorica dei governie governo parlamentare) أن هناك دوما طبقة اجتماعية تدفعها ثقافتها المحمصة وأخلاقيها النبيلة، لأن تضحي بمصالحها الخاصة ولو لحين، من أجل الصالح العام، " تلك الطبقة وحدها، تضحي مختارة بالخير الحاضر لتجنب شر مقبل".¹² على هذا النحو، كان فانون وهو يتوجه إلى المثقف الأبيض، يتساءل بكثير من الألم والحسرة، كيف لهذه النخبة المستنيرة التي تزعم الدفاع عن قيم الحرية والإنسانية في مجتمعاتها، أن تلتزم كل هذا الصمت المخجل، حيال قضايا تحرر الشعوب المستضعفة غير الأوروبية، لذلك كان فكر فانون "الثوري"، رسالة إلى الغرب عموما وإلى نخبه بشكل خاص.

لا شك أن موقف فانون الغاضب تجاه النخب المثقفة الأوروبية، إنما أملاه انسجامه مع منطق الفكر (الدياليكتي) الاستمولوجي القائم في جوهره، على مبدأ النقد الذي يجعل من المثقف منساقا دوما وبشكل لا إرادي، إلى المواقف الأكثر انسجاما مع بنيته الفكرية ومن ثمة لا يجد فانون، أي تبرير مقنع للنخب المثقفة الغربية حيال مواقفها السلبية تجاه قضايا تحرر الشعوب المغلوبة على أمرها. إن النخبة المثقفة الغربية بموقفها السلبي هذا، إنما هي أشبه بمن "يرافع ضد القضية الموكلة إليه"¹³، وهي التي كانت في أوطانها على نقيض صنيعها مع قضايا التحرر في غير أوطانها، فالتاريخ يكشف كيف نصبت النخبة المثقفة في فرنسا نفسها بشكل خاص خلال عصر النهضة، ناقدا للمجتمع بمعارضتها للطبقة الحاكمة وللكنيسة.¹⁴

لقد حاول فانون من خلال "معذبو الأرض"، تفكيك "العلاقة" الاستعمارية بين المستعمر والمستعمر، فلا فرق عند فانون، بين الطرفين، فالشعوب الفقيرة التي استعمرت لأنها مستضعفة، لم تكن تملك وسائل المغالبة المادية، فأخضعت قهرا لمنطق القوة، وأنهكت من الداخل، بأدوات المحو والتفكيك، فسهل على المستعمر استعبادها، أما المستعمر الغالب فهو في الأول، مستعمر بروح الجشع والاستغلال اللذين يملكان العقل الأوروبي، وفي الأخير، هو

مستعمر بالعرب الذي يملكه من أن يكسر كبرياءهم، عنف المستضعفين. وقد توقف فانون عند مشابك هذه العلاقة، وحاول تفكيك عناصرها، داعيا، الإنسان المغلوب على أمره، إلى استنهاض عزائمه، لتكسير قيود الظاهرة الاستعمارية.¹⁵

لكن جون بول سارتر (صديق فانون)، وهو يقدم لكتاب فانون "معذبو الأرض"، يذهب إلى القول صراحة، أن خطاب فانون لم يكن موجها للأوروبيين لأن فانون حسب سارتر، يأس من عودة أوروبا إلى وعيها، ولا يطمع في محاورتها وكشف زيف شعاراتها، فلا طائل من تحريرة الاستعمار الغربي وفضح جرائمه، ويرى أن الأولى بمخاطبتهم عند فانون، هم "إخوته" الذين انضم إليهم، والذين أرغمهم المستعمر نفسه، على العنف لاسترداد حرياتهم وأوطانهم، فلا تحرر بلا عنف.¹⁶

وعلى الرغم من أن موقف سارتر هذا، يبدو غريبا إلى حد ما، إلا أننا مع ذلك نتساءل، أولم يكن سارتر نفسه أوروبيا، ومن أرفع نخمها المثقفة؟ فكيف كان إذن معنيا بـ "معذبو الأرض"؟ أعتقد أننا بحاجة إلى إعادة صياغة السؤال على النحو الذي يدفعنا إلى التساؤل، هل أن سارتر أراد بالفعل، التعبير عن موقف فانون؟ أم تراه أراد التعبير عن مواقفه هو، خاصة وأنه (سارتر) لم يتوان في مؤازرة فانون في "أخلقة" العنف الثوري، بوصفه وسيلة شرعية للشعوب المستعمرة، لاسترداد حريتها وأوطانها المسلوقة؟

من الواضح أن ما كتبه سارتر عن جشع الأوروبيين وزيف حضارتهم، كان تعبيرا عن موقف خاص داعم لصديقه فانون الذي كان يتعرض لنقد لاذع من النخب المثقفة الغربية، لذلك حرص سارتر على تبني موقف فانون من العنف الذي اعتبره أداة لتحرير ليس المستعمر فحسب، بل لتحرير "الاستعماريين" أنفسهم من هاجس الخوف من الانهيار: "نحن أقوام أوروبا كذلك، نتحرر من الاستعمار، ومعنى ذلك، أنه بواسطة عملية دامية، يقتلع منا المعمر الوجود داخل كل واحد (...). علينا أولا مجابهة هذا المنظر غير المتوقع: تعرية إنسانيتنا بالتدرج، إنها عارية تماما لا جمال لها، إذ لم تكن إلا إيديولوجية كاذبة، وتبريرا متقنا للنهب.. إنكم بدون شك جلادون، ولا ندامة في تنفيذ الإبادة الجنسية...".¹⁷

لقد كان سارتر، يدرك جيدا أن الغرب المتعالي، سيظل ينظر لأفكار فانون "الزنجي"، نظرة دونية، وسوف ينعت أفكاره بغير الأخلاقية التي تثير الكراهية ضد الأوروبيين، لذلك فسارتر وهو يكشف وبأقوى العبارات، حقيقة نفاق أوروبا وزيف شعاراتها، إنما كان في حقيقة الأمر، ينوب عن صديقه فانون، في مخاطبة وتعرية الأوروبيين، وكأن لسان حاله يقول، أن الأوروبيين

لن يسمعوك، لأنك أسود البشرة، فهم عنصريون، فدعني وأنا منهم، أعري زيف شعاراتهم وعنصريتهم، وأجعلهم يخجلون من أنفسهم.

وبالرغم من إقرارنا بتوجه فانون بشكل كبير إلى "إخوانه" من المستضعفين، إلا أنه مع ذلك وجب الاعتراف أيضا، بأن فانون قد توجه في أجزاء مهمة من مؤلفاته، إلى اليسار الأوروبي وحتى إلى الديمقراطيين. فهيها هو فانون نفسه يؤكد في "سوسيولوجية ثورة"، أنه لم يتردد يوما في التشهير بالمواقف الشنيعة والمخجلة للأوروبيين ونخبهم المثقفة تجاه ما يتعرض له الشعب الجزائري من اضطهاد: "كنا قد أوضحنا في عدة مناسبات .. مسلك بعض الأوروبيين الشنيع في أغلب الأحيان، ولقد كنا نحب بكل تأكيد، العثور لدى الأطباء والمثقفين الأوروبيين في الجزائر، على الاهتمام بتخفيف التوتر وتسهيل الاتصالات، وإزالة مأساة الصراع".¹⁸ ويواصل فانون، اتهامه للنخبة الأوروبية في الجزائر التي أمعنت بعض أطرافها، في حقدتها على الأهالي، وفي دعمها للاستبداد حتى أنها تجاوزت في ذلك، الطبقة البرجوازية ذات المصالح الاستعمارية، عندما تصدرت هذه الفئات من النخب، الصفوف الأولى لفرق الأوروبيين التي تشكلت لدعم السلطة الاستعمارية، وهم من أعطى في كثير من الأحيان، المبرر العقلي للمستعمر للإمعان في التنكيل بالجزائريين: "... وسبق أن رأينا أطباء يقضون كامل وقتهم إلى جانب مختبرات الأبحاث التابعة للشرطة القضائية، ونعلم بأن قسسا وفلاسفة، يأخذون على عاتقهم في مراكز التجميع والاعتقال، مهمة غسل الأدمغة والنفوذ إلى النفوس، وجعل الإنسان الجزائري مشوها.. وأن أصحاب الصوت المسموع الذين أعوزهم ارتباطهم بسلطة الاستعمار عن استشراف المستقبل، "كثيرا ما ساهموا في إصباغ الصفة الوهمية على حرب الجزائر".¹⁹

وها هو أيضا، يندد مرة أخرى ويشهر بأشد العبارات بالانحطاط الأخلاقي للنخبة الفرنسية، فبرأيه أنه عندما يندد الكتاب الفرنسيون ويستنكرون التعذيب الممنهج للجزائريين، فإن ما يهمهم أولا وقبل كل شيء، هو خوفهم على جنودهم من الانزلاق إلى الفاشية، ومن أن تؤثر هذه الممارسات، على اتجاههم الفكري، وخوفهم في ذلك، على شرف فرنسا، أما الجزائريون الذين يقتلون ويغتصبون فذلك لا يهم هؤلاء الفرنسيين، لا نستطيع يقول فانون، أن نجد مثالا أحسن من هذا للتدليل على "درجة العفن الأخلاقي والفكري" عند المثقفين والديمقراطيين الفرنسيين.²⁰

لكن فانون الذي رأيناه في ما تقدم، يبدو متأسفا لمواقف النخبة المثقفة الأوروبية من قضايا الاستعمار والاستغلال الذي تمارسه بلدانهم على الشعوب المستضعفة خارج أوروبا،

يبدو في حالة المثقف الأهلي، أكثر تأسفا وتأثرا بسبب المواقف الهزمية للنخب المثقفة الأهلية تجاه شعوبها وأوطانها عندما وقفت مواقف سلبية من معارك التحرير التي تخوضها شعوبهم.

في كتابه " العام الخامس للثورة الجزائرية"²¹، لم يكتف فانون بتبرير تبنيه للعنف²² كحق طبيعي للمستضعفين من أجل التحرر والانعقاد، بل وأبدى الكثير من الفخر لتبنيه للفكر الثوري والاعتزاز بانتمائه لهذا الخط، وهو يتوجه إلى الأوروبيين بكثير من القبح والاستصغار: "إن الشعب الأوروبي الذي يعذب، هو شعب ساقط خائن للتاريخ. أما الشعب المتخلف الذي يعذب، فإنه يؤكد طبيعته، يقوم بوظيفته كشعب متخلف"، والأكثر من ذلك، أن فانون، يحتاج الأوروبيين بالأدلة التي تجعل من هذا الشعب المتخلف الذي لا تعوزه قلة الإمكانات حينما يقوم بعنفه تجاه من يستعمره ويستعبده، إنما وهو بفعله هذا، إنما يريد استعادة حقا طبيعيا ومشروعا، في مقاومة هذا المستعمر.²³

لكن فانون الذي آمن بزوال الاستعمار وبانعقاد الشعوب المضطهدة، فانحدر في معركة التحرير الوطني الجزائرية، وناضل باسمها من أجل انهاء الظاهرة الكولونيالية برمتها، وتخليص العقول من "عقدة الخوف والأرتجاف، والركعة واليأس"²⁴ لم يخف قلقه من عودة أشكال الظلم والعنف إلى البلدان التي خرجت لتوها من الاستعمار، فنبه (في معذبو الأرض) إلى المزالق التي وقعت فيها بعض التجارب الثورية في الدول حديثة الاستقلال- وهو ما يشكل، ضعفا وقصورا في فكر فانون بمنظور المناهضين له من النقاد الغربيين- لذلك لم يتوان في نقد النخب الأهلية (التي هي بالمجمل، نتاج الواقع والفكر الكولونياليين)، واتهمها بالانتهازية والوصولية لأنها تحالفت مع البرجوازية الكولونيالية.²⁵ وعادت إلى ممارسات الاستعمار القديم.

لكن من السذاجة أيضا، مسيرة حجج الغرب، فالحجج الغربية، ليست في النهاية، سوى تبرير لخدلان هذه النخب للقيم الإنسانية، وعدم وقوفها إلى جانب الشعوب المستضعفة والمضطهدة، في معارك التحرر والانعقاد - وهي التي تتشدد بالدفاع عن الحرية والمساواة- ليس في الحقيقة سوى تزييفا لعقيدة الفكر الكولونيالي الذي يحكم الغرب، لذلك أصبح العنف، حتمية وجودية، لأن قيم الحضارة الغربية التي يرفعها الغرب، ليست في النهاية، سوى وسيلة لاستغلال الشعوب الضعيفة والمغلوبة على أمرها. هذه هي الحقيقة التي واجه بها فانون المثقفين في الغرب.

ويذهب فوزي السليسلي (أحد المهتمين بفكر فانون) إلى أن ما أقنع فانون بالانخراط في كفاح الشعب الجزائري التحرري، هي ثقافة الجزائريين الإسلامية، ويذهب إلى حد القول أن فانون قد تعمد إخفاءها، حتى لا ينعته اليسار بالرجعية، ويضيف، أن فانون كان أيضا، يأمل في "تصدير" نموذج ثورة الجزائر إلى الدول الأفريقية التي ما تزال ترزح تحت الاستعمار، وأنه بالمقام الأول، كان يود أن يخاطب النخب الغربية لإقناعها بمساندة القضية الجزائرية، فكان عليه أن يخاطبهم بلغة اليسار.²⁶

والحقيقة أنني أجد في هذا، كثيرا من التأويل العاطفي لقضايا هي في أساسها، قضايا فكرية بحثة لم نعلم يوما أن صاحبها اعتقد بها، كون فانون نفسه لم يتأثر بهذه الثقافة، والدليل على ذلك، أنه توفي على ديانته المسيحية، وأوصى أن يدفن وفق طقوسها²⁷، ثم أن فانون، هو مفكر وفيلسوف متشبع بمنهج الفلسفة الوجودية، ويؤمن بالمنطق في الدراسة والتحليل ومن ثمة فليس صحيحا البتة، أنه كان يحلل الظاهرة الاستعمارية عموما، تحت تأثير الثقافة الإسلامية.

3- خاتمة:

حينما كان فانون يندد بالمواقف السلبية لنخب الغرب المثقفة تجاه قضايا العدل والحرية خارج أوروبا، إنما كان ينبه هذه النخب إلى حجم الإفلاس الذي وصلت إليه بسبب تخاذلها وصمتها بل وتآمرها في أحيان كثيرة، حيال ما يتعرض له الإنسان المغلوب على أمره في البلاد المستعمرة، من استعباد على امتداد قرنين من الزمن (التاسع عشر والعشرين)، إعادة صياغة مفهوم جديد للنخبة المثقفة المنحازة للحق والعدل دونما اعتبار للجغرافيا، ويراه العقل- يجب أن يظل على الدوام مدافعا عن الإنسان أي كان جنسه أو لونه، لذلك ندد فانون بالجميع، ندد بصمت نخب الغرب تجاه ما تمارسه أوطانهم من استعباد واستغلال للشعوب المغلوبة على أمرها، كما شهر فانون بخنوع واستسلام النخب الأهلية في الأوطان المستعمرة، التي تخلت عن أدوارها في قيادة شعوبها للتحرر من مخالب الاستعمار والاستعباد، وبرأي فانون، فإنه لا حياد ولا مكان للمثقف العضوي عندما يتعلق الأمر بتحرير الأوطان، بل وجب أن يتصدر المثقف، صفوف المدافعين عن الوطن بالكلمة وبالسلح، فوظيفة المثقف، هي الدفاع عن مصالح الوطن بالوسائل التي تحتمها الظروف، لذلك لم يبال فانون باستهجان نخب الغرب، واتهامهم له بالانحراف عن خط "المثقف الملتزم" وبإثارة لمشاعر الكره والعنصرية تجاه الغرب، فلم يكن ذلك إلا حينما فضح زيفهم ونفاقهم، وانتهاجهم سياسة

الكيل بمكيالين: فهم المدافعين عن "قيم الديمقراطية" في أوطانهم، والمتآمرين عليها في أوطان العرب والزنج.

¹ احتل الفرنسيون، المارتينيك في العام 1636، وفي العام 1946، أصبحت مقاطعة فرنسية. فرانسواز فرجاس - شبح
فرانس فانون أو نسيان العالم الثالث - ترجمة س. لطفي - أعمال الملتقى الوطني الأول حول "فرازن قانون" - بجامعة
الطارف من 12 إلى 13 جوان 2004 - ص 80.

فرازن فانون - معذبو الأرض، ترجمة سامي الدرومي، وجمال الأتاس - دار الطليعة للنشر - بيروت - 1979 - ص 17،
20.

² محمد المليي - "فانون كما عرفته" - أعمال الملتقى الوطني الثاني حول "فرانس فانون" - بجامعة الطارف يومي 30
و 31 ماي 2005 - ص 53. وكذلك فرانسواز فارجاس - المصدر السابق - ص 81.

³ محمد المليي - فانون كما عرفته - المصدر نفسه - ص 64. وكذلك محمد المليي - فانون قانون والثورة - المصدر
السابق - ص 17.

⁴ صدر الكتاب لأول مرة تحت عنوان "بشرة سوداء وأقنعة بيضاء" (Peau noire et Masques blancs) عن دار
النشر لوساي (Le Seuil). FR.A- NOM- GGA- 7G 517(DST: Dossier "Star").
⁵ محمد المليي - فانون كما عرفته - المصدر نفسه - ص 64.

⁶ محمد المليي - فانون قانون والثورة. (طبعة خاصة لوزارة الثقافة بمناسبة تظاهرة الجزائر عاصمة الثقافة العربية) - الطباعة
الشعبية للجيش - الجزائر - 2007 - ص 16.

⁷ محمد المليي - فانون قانون والثورة - المصدر السابق - ص 10، 13.

⁸ فرانسوا فارجاس - المصدر السابق - ص 80.

⁹ محمد المليي، المصدر نفسه، ص 67.

¹⁰ محمد المليي - فانون قانون والثورة - المصدر السابق - ص 67.

¹¹ FR.A- NOM- GGA- 7G 517(DST: Dossier "Star")

¹² ت.ب. بوتومور - النخبة والمجتمع - ترجمة جورج حجا - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - الطبعة الثانية -
بيروت - 1988 - ص 74.

¹³ محمد عابد الجابري - إشكاليات الفكر العربي المعاصر - مركز دراسات الوحدة العربية - الطبعة الأولى - بيروت -
1989 - ص 13.

¹⁴ ت.ب. بوتومور - المرجع السابق - ص 73.

¹⁵ أنظر دعوة فانون في خاتمة كتابه - معذبو الأرض - المصدر السابق - ص 188 - 189.

و كذلك Imudia Norman AJARI, Race et Violence - Frantz Fanon à l'épreuve du postcolonial - thèse en vue de l'obtention du Doctorat en Philosophie - Université de
Toulouse 2 - soutenue le 20 septembre 2014 - p09

¹⁶ فانون فانون - معذبو الأرض - المصدر نفسه - ص 5.

- ¹⁷ جون بول سارتر - مواقف مناهضة للاستعمار - ترجمة محمد معراجي - الشركة الوطنية للنشر - الجزائر - 2004 - ص 94.
- ¹⁸ فرانز فانون - سوسيولوجية ثورة - المصدر السابق - ص 151.
- ¹⁹ فرانز فانون - سوسيولوجية ثورة - المصدر السابق - ص 151 - 152.
- ²⁰ فرانز فانون - من أجل أفريقيا - ترجمة محمد الميلي - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الطبعة الثانية - الجزائر - - 1980 ص 54 - 55.
- ²¹ أعيد نشره بالفرنسية، ثم بالعربية تحت عنوان " سوسيولوجية ثورة " - دار الطليعة - بيروت - 1970 - نقلا عن فرانز فانون - معذبو الأرض - المصدر السابق - ص 6.
- ²² في رسالة الدكتوراه التي أعدها حول "فانون في مواجهة ما بعد الكولونيالية"، تذهب إموديا نومرمان أجاري (Imudia Norman Ajari)، إلى أن أسئلة "العنف والتحرير" أو الثورة، لا تمثل أكثر القضايا أو الموضوعات التي كتب فيها فانون، بل أن هذه القضايا، تمثل أسلوب ونسيج الفكر الفانوني، وهي بالنسبة لفانون، قضايا الميتافيزيقا مثلها مثل قضايا: الكائن، والموضوع المتعالي أو الله. Imudia Norman Ajari, op.cit.p. 09.
- ²³ فرانز فانون - سوسيولوجية ثورة - ترجمة ذوقان قرقوط - دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت - طبعة أولى (كانون الثاني (يناير) - 1970 - ص 12 - 13.
- ²⁴ مقتطف من الجملة الشهيرة لأستاذه إيمي سيزار (Aimé Césaire) التي ذكرها في حديثه عن الاستعمار: "أتحدث عن ملايين الرجال الذين غرسوا بذكاء، بالخوف وعقد النقص والارتجاف، والركوع واليأس.."، وأصبحت من العبارات الشهيرة خلال القرن العشرين عن الاستعمار، وقد أعاد فانون ذكرها في كتابه "بشرة سوداء أفتحة بيضاء" الذي صدر في 1952. - Charles- Edouard Leroux, les dialogiques du mémorial de Caen, cycle 2016 - deuxième partie: trois philosophes du déracinement:2- Frantz FANON(1925-1961) ou l'homme recomposant, p.2-3
- ²⁵ فرانز فانون - معذبو الأرض - المصدر السابق - ص 19، 138، 20.
- ²⁶ فوزي السليسلي - غياب البعد الإسلامي في نصوص فانون، الإسلام المسكوت عنه - في "معذبو الأرض" - مدارات للبحث والنشر - القاهرة - 2014 - ص 290.
- ²⁷ مقابلة خاصة مع نجل فرانز فانون أوليفي فانون (FANON Olivier) على هامش الملتقى الدولي لفرانز فانون بالطارف 2005م